

الزمن النوعي والزمن الموصول



في الزمن الأوّل جميعنا متساوون، فابن الـ(18) عاماً في الشرق مثله مَثَل ابن الـ(18) سنة في الغرب؛ لكنّ الفارق هو في السنّ النوعي، كم أنجز ذاك في (18) سنة، وكم أنجز هذا في الفترة المماثلة.

السيدة فاطمة الزهراء (ع) توفيت ولها من العمر (18) سنة كما في بعض الروايات، وإذا أسقطنا شيئاً من الطفولة الأولى التي لا تُمَدُّ لسنّ التكليف (المسؤولية الشرعية) فإنّ مجموع عمرها العملي لا يتعدّى العقد من الزمن؛ ولكننا لو درسنا (الزمن النوعي) الذي جعل هذه الفتاة أو المرأة سيّدة لنساء العالمين في فترة وجيزة، لرأينا أنّ زمن الزهراء (ع) النوعي كان مفعماً وممتلئاً ومشحوناً بالعطاء.

هذه الخصوصية في هذا الزمن ليست استثنائية، أو فاطمية، أو زهرائية فحسب.. نعم، ليس لدينا سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين غيرها (مريم كانت سيّدة نساء عالمها فقط)؛ لكنّ تعبئتها لعقد من الزمن بالعطاء الذي يُعادل عقوداً منه، ينفعنا في وصف الزمن النوعي بأنّه (عصير الزمن) الذي

تُعْتَصَرُ فِيهِ كُلُّ دَقِيقَةٍ مِنْ دَقَائِقِهِ لِیُسْتَخْرَجَ كُلُّ مَا فِيهِ مِنْ مَاءٍ وَحُلَاوَةٍ وَعَافِيَةٍ وَإِنْجَازٍ .

واللّٰفت في الزمن النوعي الذي يُمَثِّلُ عَصَاةَ الزمن أَنَّهُ مُتَاحٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ، وَلَوْ تَأَمَّلْنَا فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَعْدِلُ أَوْ تَسَاوِي بَيْنَ عَمَلٍ وَاحِدٍ وَعِبَادَةِ سَنَةٍ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً ، لَرَأَيْنَا أَنَّ (سَاعَةَ تَفَكُّرٍ) مِثْلًا تَعَادِلُ عِبَادَةَ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ ، أَوْ (قِضَاءَ حَاجَةِ مُؤْمِنٍ) تَسَاوِي (سَبْعِينَ حِجَّةً) وَهَكَذَا . وَالْمَرَادُ أَنَّ قِيَمَةَ الْعَمَلِ لَا بِالْقِيَاسِ الزَّمَنِيِّ ، بَلْ بِمُؤَدَّاهِ الْمَجْتَمَعِيِّ أَوِ النَّفْعِيِّ أَوِ الْإِصْلَاحِيِّ ، وَبِهَذَا يُمْكِنُ تَفْسِيرُ قَوْلِ النَّبِيِّ (ص) يَوْمَ الْخَنْدَقِ: «لِمُبَارَزَةِ عَلِيٍّ لِعَمْرُو بْنِ وَدٍّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ أَعْمَالِ أُمِّ مَيْمُونَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [1] مِنْ غَيْرِ أَنْ يَثِيرَ الْقَوْلُ فِينَا اسْتِغْرَابًا ، لِأَنَّ النَّبِيَّ (ص) لَمْ يَقْسِ الضَّرْبَةَ بِالْوَقْتِ الَّذِي اسْتِغْرَقَتْهُ ، بَلْ بِالْأَثَرِ الَّذِي تَرَكْتَهُ ، مِمَّا يَجْرُنَا إِلَى اسْتِيعَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَكَتُ بُرْجًا مِمَّا قَدْ دُمُّوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس/ 12) .

إِذْ إِنَّ حِسَابَ الْأَعْمَالِ لَا يَنْحَصِرُ بِصَلَاحِ الْعَمَلِ أَوْ فَسَادِهِ ، بَلْ بِالْآثَارِ الْمَتْرُتِّ بِهِ عَلَيْهِ أَيْضًا ، وَانْسِجَامًا مَعَ ذَلِكَ وَمِنْ رُوحِهِ وَوَحْيِهِ ، قَالَ النَّبِيُّ (ص): «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أَجْرِهِمْ مَنْ غَيْرُهُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِهِمْ مَنْ غَيْرُهُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا» [2] .

وَهَذَا مُؤَشِّرٌ خَطِيرٌ لَا عَلَى أَهْمِيَّةِ وَضَرَرِ الْعَمَلِ ، بَلْ عَلَى تَدَاعِيَاتِهِ أَيْضًا ، إِذْ قَدْ يَكُونُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِي مَبْدَأِهِ صَغِيرًا ، وَالْعَمَلُ الْمُنْكَرُ فِي بَدَايَتِهِ مَحْدُودًا ؛ لَكِنْ الْأَخْذُ بِهَذَا أَوْ ذَاكَ فِي مَا بَعْدَ يَمْنَحُهُمَا مَدًى أَوْ بُعْدًا زَمَنِيًّا أَوْسَعَ مِنْ دَائِرَةِ الزَّمَنِ الَّذِي تَمَّ فِيهِ هَذَا الْعَمَلُ أَوْ ذَلِكَ ، الْأَمْرُ الَّذِي يَدْفَعُنَا إِلَى الْاسْتِزَادَةِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ وَالنَّفْعِ الْعَامِ الَّتِي لَا تُمَثِّلُ الْبَرَكَةَ الرَّاهِنَةَ فَحَسْبُ ، بَلْ (الْصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ) أَيْضًا .

إِنَّ مَفْهُومَ (الْصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ) مَفْهُومٌ وَاسِعٌ مُتَّسِعٌ يَكْتَسِبُ عَلَى الْأَيَّامِ سَعَةً عَلَى سَعَتِهِ ، إِذْ لَيْسَ الَّذِي يَوْقِفُ وَقْفًا مَا يَكُونُ قَدْ أَجْرَى صَدَقَةً جَارِيَةً ، وَلَا الَّذِي كَتَبَ كِتَابًا نَافِعًا يَنْتَفِعُ مِنْهُ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ دَمَّ صَدَقَةً جَارِيَةً ، أَوْ حَفَرَ بَنَاءً وَشَقَّ شَارِعًا ، وَزَرَعَ زَرْعًا يَأْكُلُ الطَّيْرُ وَالنَّاسُ مِنْهُ ، كُلُّ هَذِهِ وَأَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرُهَا صَدَقَاتُ جَارِيَةٍ ؛ لَكِنْ كُلُّ قَوْلٍ حَكِيمٍ ، أَوْ تَوْصِيَةٍ عَاقِلَةٍ ، أَوْ دَرَسٍ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالِاتِّعَاضِ وَالْعِبَرَةِ ، وَكُلُّ تَجَرِبَةٍ قِيَمَةٍ تُحْتَذَى وَتُفْتَدَى ، سِيَاسِيَّةٌ كَانَتْ أَمْ إِدَارِيَّةً ، أَمْ اقْتِصَادِيَّةً ، أَمْ مَجْتَمَعِيَّةً ، هِيَ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، وَلِذَلِكَ لَا حُدُودَ لِلصَّدَقَاتِ الْجَارِيَةِ .

غَيْرَ أَنَّ مَا يَشُدُّ انْتِبَاهَنَا هُوَ صِفَةُ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ (الْجَارِيَةِ) الَّتِي يَشَبُّهَا الْحَدِيثُ بِالنَّهْرِ الْجَارِيِ

المعمّر الذي لا يتوقّف عن الجريان، أي إنّ قدرته على النفع والإرواء والسقي مستمرّة مادام موجوداً، وإنّ الزمن لا يُلبّيه بل يكسبه ألقاً وتجدّداً، بل كلّما انتفع به منتفع بعث صاحبه الذي تدور مسرح الحياة إلى المسرح من جديد، وزاد في أجره وثوابه أُجوراً مضاعفة، ممّا يعني أنّ عمر الإنسان الذي يعمل عملاً صالحاً لا يُقاس بسنّ حياته المحدودات، بل بهذا الامتداد الزمنيّ الرحب، وهذا من غاية الألفاظ الإلهيّة بالإنسان العامل الذي يجعل عمله (ناطقاً رسمياً) باسمه حتى بعد حياته، وممّثّلاً عنه في كلّ موقف تُستعار فيه صدقته الجارية.

يقول شوقي:

دقائق قلب المرءِ قائمةٌ لهُ ***** إنّ الحياةَ دقائقٌ وثوانٍ

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها ***** فالذكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانٍ!

وتعبير (العمر الثاني) دقيق وجميل وذو إيحاء غنيّ له دلالة لا في استطالة العمر فحسب، بل بالحضور الدائم في كلّ مكان وزمان تُسترجع فيه مقولات، وأعمال، ومشاريع، ومنجزات وحسنات العاملين الصالحين.

واستكمالاً لمعاني الزمن النوعيّ وسلّم أُلوليات الزمن، وعصارة الزمن المبارك، فإنّ مفاهيم الإسلام أرحبُ ممّا ذكرنا، إذ ليست (الصدقة الجارية) أو (العمر الثاني) فقط هو الذي يرتجيه العامل في سبيل الله، المبارك النفّاع، بل إنّ عمله الصالح يربطه بسلسلة الصلاح من أوّلها إلى آخرها، حيث يكون حلقة مهمّة ومكملة للسلسلة المباركة التي سبقته والتي تليه، تأمّل في معاني الدُّعاء الآتي:

«اللّهُمَّ الحقني بصالح مَن مضى، واجعلني من صالح مَن بقى، وخذ بي سبيل الصالحين، واعنّي على نفسي بما تعينُ به الصالحين على أنفُسهم، ولا تَرُدّني في سوء استنقذتني منه، واختم عملي بأحسنه، واجعل ثوابي منه الجذّة» [3].

ومفاده أن يكون صلاحي - يا ربّ - مُلحقاً بصلاح أسلافي الصالحين، وهو تاريخ طويل ممتد على خارطة الزمن الصالح كلّّه، وأن يكون ممتدّاً في حياتي ما أحييتني لا أشدّ ولا أندى ولا أحيّد عنه قيد أنملة، بل ويدعو الإنسانُ الصالح إلى استمرار الصلاح في ذرّيته أيضاً: «وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» (الأحقاف/ 15)، حتى لا تنقطع السلسلة، أو يتوقّف النهرُ الجاري، أو يموتُ العمرُ

بهذا يكون عُمر الإنسان أضعافاً مضاعفة يُخْتزنُ فيه أعمارُ مَنْ سلفوا من الصالحين، وعمره الممنوح له، وعمر صلاحه الممتد في ذرّيته من جهة، وفي أعماله الصالحة الخالدة المُخلّدة من جهة، وبذلك يضيفُ أعماراً إلى عمره!

[1]- سيرة الأئمّة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني، نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة، عن المجلد الثاني من مستدرك الصحيحين عن سفيان الثوري، ج1، ص323.

[2]- ميزان الحكمة، محمّد الري شهري، ج4، رقم الحديث8939، ص566.

[3]- من أدعية السحر الرمضانية (دعاء أبي حمزة الثمالي).